حمدي

مع حواء

هدية المؤلف
للأستاذ أديب
منشئ دار الأدب
بالتقدير

٩٤٤/١

892.78
Ha527mA

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

حديث

الى

فى ثنايا الزمن

طبعة سنة ١٩٣٠

١

وتكلم عن الحياة ، فيما كان يتكلم ، فوصفها بالحلم ، واوجب ان يكون هذا الحلم عذباً جميلاً ، ولم ير غير الحب شيئاً يضمن هذه العذوبة والجمال ، ثم تكلم عن الشباب فقال انه سويعات من العمر يكمن فيها كل اللذة واللهو والمرح والحب . ولما ذكر الحب طلب اليَّ ان أتحدث عنه واكثر من الحديث . فهو يعتقد ويجزم في اعتقاده ان ليس مثل المرأة من يعرف الحب ؛ وليس مثلها من يحلله فيستطيع ان يوضح في تحليله ايضاحها ؛ او يصوره فيستطيع ان يبدع في تصويره ابداعها ، لذلك يفسح لي في المجال لاحدثه عنه واعرضه عليه خير عرض فيراه مجرداً من كل تشويه ، ويراه خالياً من كل طلاء ، او وشي ظاهر الحقيقة ، بادي الجوهر . وأرفق طلبه بالاشارة إلى وجوب الصراحة في هذا العرض ، ووجوب الجلاء ، كي يصل الى النتيجة المتوخاة . لكني احجمت عن اجابته عما يسئل فسكتّ .

كنت اعلم انه قد قرأ الحب في كثير من الكتب القديمة وطالع عنه في اكثر منها من الكتب الحديثة ؛ وكنت متأكدة بانه قد

اختبره في احضان كثير من النساء فعرفه حق المعرفة ؛ وادركه تمام الادراك ، فخشيت ان لا اصيب امامه الهدف، وان أخطئ في عرض آرائي الخطأ الذي لا أحبه لنفسي ، فسكتّ .

على اني لم اظهر له هذا التردد ، وانما اعتصمت بالحياء واتخذت منه وسيلة الى السكوت وطلبت اليه ان يحدثني هو ، وألححت في طلبي ، ورجوته ان يدير حديثه حول المرأة العربية ورأيها فيه في مختلف عصورها. فانطلق في عذوبة وطلاوة يفيض علي من معلوماته ويغمرني باللذة في الاستماع لجرس صوته.

واستوت كليمتها قاعدة ، وقد شاقها ان تسمع رأى الشاب في حب المرأة ،وشاقها في الاكثر ان تطلع على حب سوالفها. ومضت صاحبتها تتابع الكلام :

قال :

سأتكلم في هذه الناحية كلاماً صريحاً الى ابعد حدود الصراحة وجلياً الى أقصى حدود الجلاء لا اظنك سمعت مثله من قبل . ولعل توخي الحقيقة يحسن عني فلا يدفعك الى أخذي بلوم او بنقد والى الانكار علي أني لم أرع قواعد بالية من قواعد التقاليد تحتم على المرء ان يحبس الحقيقة فلا يظهرها ؛ ولم اتبع عادات وسنناً موضوعة: من

سكوت في مثل هذه المواقف التي ستترين وطي ذكر هذه الحالات التي ستعلمين فاذا سمعت ام الضحاك المحاربية وهي شاعرة جاهلية تقول:

أرى الحب لا يفنى ولم يفنه الأولى أحبوا وقد كانوا على سالف الدهر
وكلهم قد خاله في فؤاده باجمعه يحكون ذلك في الشعر
وما الحب الا سمع اذن ونظرة وحنة قلب عن حديث وعن ذكر
ولو كان شيء غيره فنى الهوى وأبلاه من يهوى ولو كان من صخر

وجدتها لا تمنع نفسها عن التعبير بصراحة عن فكرتها في الحب والفيتها قد مارست الحب اصدق ممارسة ثم اعطتك عنه صوراً صحيحة لا تدجيل فيها ولا مواراة، فالتمست لي العذر او على الاقل لم تلتمس لي التأنيب.

عرّفت الحب فقالت انه أزلي لا يفنى وان الانسان هو الذي يفنى ثم وصلته من طرف خفي بالروح فجعلته أمسّ حاجة للانسان، ولعلها فكرت في جعله الروح نفسها يحتاج اليه القلب كما يحتاج اليها فصيرته روحاً.

وتقول:

شفاء الحب تقبيل وضم وجر بالبطون على البطون
ورهز تهمل العينان منه وأخذ بالمناكب والقرون

تراه مرضاً يعتري الانسان كأي نوع من أنواع الامراض يعتري كل انسان ، وترى ان المحب يحتاج الى وصفة تبرؤه فتصف له دواء وهذا الدواء هو حقيقة الحب ، لا كما يتخيله الشعراء من مناجاة صورٍ جميلة او تماثيل بديعة .

واذا سمعت عشرقة المحاربية وهي كذلك شاعرة جاهلية ، تقول :

جريت مع العشاق في حلبة الهوى
ففقتهم سبقاً وجئت على رسلي
فما لبس العشاق من حلل الهوى
ولا خلعوا الا الثياب التي أبلى
ولا شربوا كأساً من الحب مرة
ولا حلوة الا شرابهم فضلي

وجدتها لا تفهم من الحب الا انه متعة من متع الحياة يلذ المرأة ، ويهيء لها اسباب المرح . فقد رأت ميدانه حلبة سباق فجرت فيه فسبقت العشاق والسباق كما تعلمين نوع رياضة عند العرب يجدون فيها تسلية ولهواً ، ورأت ان الحب حلة من الحلل المبهرجة تغتبط له المرأة اغتباطها للحلة فلبست منه الواناً حتى اذا بليت خلعتها ورمت بها الى عشاق آخرين فلبسوها ، وانه كالخمر ، فجرعته لا تبالي به

أكان عذباً، أم كان مراً فالقت بما بقي في كأسها الى هؤلاء العشاق فشربوه.

هذا هو الحب في نظر الجاهليات تقبيل وضم وجر البطون، ورهز، وأخذ بالمناكب، وحلبة سباق، وحلل مبهرجة، وشراب

وفي الواقع فليس الحب شيئاً غير هذه الأشياء.

اما الاسلاميات،

فهذه ليلى الأخيلية تشير من طرف خفي الى ماهيته:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها

فليس اليها ما حييت سبيل

فتوضح هذه الاشارة انه ليس الا ما ذكرته أم الضحاك. فقد كانت ليلى في مجلس الحجاج فجرى بينها حديث عن توبة بن الحمير الخفاجي، فسألها هل كانت بينهما ريبة، فنفت لكنها اعترفت بانه قال قولاً فرأت في هذا القول خضوعاً لبعض الامر فمنعته عن التصريح به. وأفهمته ان ليس الى طلبه ما عاش وعاشت من سبيل فماذا كان هذا الطلب؟ أليس هو الضم والعناق ثم ارتشاف الثغر ثم أخذ بالمناكب ثم ...

وهذه جارية لسليمان بن عبد الملك تكتب الى فتى بادرها بالحب:

خيراً رأيت وكل ما عاينته

ستناله مني برغم الحاسد

اني لارجو ان تكون معانقي

فتبيت مني فوق ثدى ناهد

وأراك بين خلاخلي ودمالجي

وأراك بين مراحلي ومجاسدي

فجند فيما تكتب ما معنى الحب.

وهاك امرأة من قيس، ترى فيه غير ما رأت هؤلاء فتعتقد انه البؤس والحمق، وتجزم ان الفتى الذي لم يتذوق البؤس يذوقه اذا احب وان ذا الحجى اذا وقع في الحب غدا جاهلاً احمق:

وما كيس في الناس يحمد رأيه

فيوجد الا وهو في الحب احمق

وما من فتى ما ذاق بؤس معيشة

فيعشق الا ذاقها وهو يعشق

اما علية اخت الرشيد، فقد كانت ترى في الحب، مجموعة آلام ولذات وشغلا يشغل الناس عن كل شيء خلاه:

واطيب ايام الفتى يومه الذي

يروع بالهجران فيه وبالعتب
اذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى
فأين حلاوات الرسائل والكتب

*****

وضع الحب على الجور فلو انصف المعشوق لسمج فهو متعة والمتعة يجب ان يكون فيها سخط ورضى، ولا تستعذب ايامه اذا لم يخللها ألم تعقبه لذة او لذة يعقبها ألم ؛ ويجب ان توضع على جور وعنف فاذا كان في عطف ولين سمج وضاعت لذته. وهو شغل يملك الانسان فلا يدعه يفكر في غير حبيبه ؛ ويحصر اهتمامه في رضائه اذا غضب واستجلابه اذا اعرض وتوفير اسباب مرحه وهنائه اذا قبل

*****

وثنى صاحبي فقال : والحب كما تنظر اليه الاسلاميات حاجة في النفس تورث البؤس والحمق ، وتكمن فيها اللذات وتبعث بالنفور والشدة في ناحية والذل والاستعطاف في ناحية اخرى . ثم كف يستجمع افكاره .

وسكتت الراوية

- ٢ -

ايتها الآنسة ؛ يذهب اكثر الناس مذهبك ، فيقولون ان الحب باعتبار عقلي وسيلة الى الرفعة والزيادة في الخيرية ، لايكاد احد من اهل الفطنة والحكمة يخلو من شغل قلبه بصورة حسنة انسانية (١) ويقولون انه سر من الاسرار يجعل الانسان غير انسان فقد تكون المرأة امرأة حتي تجد لها حبيباً فاذا وجدته تألهت وغدت تملك جنة وتملك ناراً وانه احساس في الروح بشعاع ازلي ولكن هذا الاشعاع ملطف في وجه جميل ومعان جميلة ولولا ذلك لأهلك ، ولانفجر القلب من ساعته؛ وازبه وحده يصل المرء الى الملائكية فيحيا اكثر من حياة انسان فتكون الطبيعة اكثر مما هي طبيعة ، وانه كمال الوجود الانساني لشخصٍ مافي وقتٍ ما . (٢)

ويصفه غيرهم فيقول :

الحب ربيع تنتهي اليه النفس فتنتعش فتحيا فتشعر بالوجود ،وبجماله وبآياته ؛ فتستبين دقائق هذا الجمال ؛ وتطّلع على خفايا هذه الايات

(١) لابن سينا (٢) من اوراق الورد للرافعي

فتقف على مالم يتسنى لها ان تقف من قبل او مالم يتسنى لها ان تقف لو لا الحب .وهو «نسيج وشيه الخيال» ومسامرة الاماني ومسايرة الاحبة ، والشيء الذي ينيل الانسان مايشتهي والقلب ما يتوق إليه

ويرى اكثرهم ان فيه تحقيق كل انسان روحانيته في غيره وانه امتلاء حياة بحياة وانه قدرة انسان على قلب آخر ؛ ثم قدرة على الكون المتصل بالثاني ، ثم الوهية .

لكن الحب في الاصل ليس شيئاً من هذا القبيل وانما هو شيء غير هذا بعد كل البعد عما قالوه وصوروه ووصفوه ، وهم يعرفون ذلك تمام المعرفة ، لكنهم يكابرون فينكرون الحقيقة الصريحة ويشوهونها بمايسبلون عليها من اوصاف والقاب ونعوت ، وسأحاول هنا ان آخذ بعض آراء عرضتها عليك فانقدها وانا اعلم بانها منقودة بنفسها غير اني في سبيل اقناعك ، او بأوضح قول في سبيل انارة الطريق امامك كيلا تأخذك ظواهر الكلم ، لا ارى من بأس في الوقوف حينا عندها ، وفي اخذها بشيء من النقد .

ثم قال :

اما ان تتأله المرأة في الحب فذلك واسمحي لي ان اقول اسخف ماوصل اليه الخيال .

فضحكت عجبي

وتابع هو :

فالمرأة تبقي امرأة لكن الرجل ، لشدة ولعه بها يزين له انها غدت إلهة لها جنة ولها نار . فتأمر فيطيعها ؛ وتنهي فينتهي . حتى اذا خف ولعه وتلاشى كفر بها وبنعيمها وجحيمها ثم نبذها نبذ النواة ، فلم يجشم نفسه ولو التفكير في مصيرها .

واما ان يصل المرء الى الملائكية فشيء اسلم به الى حين ، واعني الى حين يزول الحب فاذا زال وكان الفراق فالقطيعة فهلا يهبط الى منزلته الحقيرة الاولى . فكيف يرضي بالحقرية من عرف الرفعة وكيف يعود الى اخفض المحلة من كان في اعلا الطباق هلا ترين انهم يريدون ان نعتقد ان لكل انسان ان يصعد الى السماء فيبقى فيها زمناً يذوق ماتذوق آدم حتى اذا انتهى ميعاده هوى الى الارض هوياً لا يرجو بعده صعوداً

واذا كان الحب قدرة انسان على قلب انسان ، فما باله لما يسلوه هذا الانسان لا يستطيع ان يستخدم هذه القدرة على قلبه مرة اخرى . او كان الوهية ، فما للحبيب ـ اذا عشق ـ يمسو عبداً ولا يستطيع ان يحفظ مكانته فيرغم غيره على عبادته واعني ان المحب هو العبد

وان الحبيب هو الاله في حين من الدهر فان عكست الايام الحال، وعشق الحبيب فانه يغدو محباً اي عبداً. فكيف يرتقي العبد الى الالوهية ويهبط الاله الى العبودية . اليس هذا من لغو القول ؟

وتبسمت ، فتبسم ، فقال

فهذه الآراء وما قيل من قبل ، وما يقال من بعد آراء يستصوبها الموهوم الساذج الذي يأخذه ذخرف الكلمات فيندفع يردد ماسمع دون ان يعى ، ودون ان يدرك ، كأنه الببغاء .

فما الحب ؟

فصاحت به في لهفة ؛ فما الحب . فاجابها :

يرى احد الادباء المصريين فى الحب رأياً لا تطرف فيه ولا غلو احب ان اعرضه عليك لما يحوي من حقيقة في الوصف وصدق في التعريف . واحب ان اجثك على ان تبذلي قليلاً من التفكير بعد اطلاعك عليه لتجدى انه حق ، وانه امر لا يتفق لك ان تجادلي فيه .

يقول : ان الحب مرض لكنه لاينفذ الا الى السليم ماحفظ صحته فاذا اعتل فمرض فان سوراً يرتفع بينه وبينه فلا تجد جرثومته الى جسمه سبيلاً .

تصورى انك عاشقة هيمي قد شغلك الحب فلا ترين الا الحبيب ولا تسمعين الا صوت الحبيب ؛ وانك امسيت تحيين له وتعيشين به وأمسي كل مافيك من حيوية وروح لايفتأ يردد اسمه العذب ويرتله ماأشرقت الشمس ؛ وسطع النجم ؛ وانبثق الفجر . تصوري ذلك كله ثم انظري الى نفسك وقد اصابك شيء من سوء الهضم مثلا فسبب لك صداعاً في الرأس او حمىً في الجسم ، وانبئيني هلا تزالين تفكرين به ولسانك يردد اسمه وقلبك يهتف بذكره وقولي واعتمدي الصراحة تامة في هذا القول: هل يكون شأن الحب معك في الصحة شأنه معك في المرض .

انا اوقن كل اليقين ان الجواب سيأتي سلباً ولن يأتي ايجاباً .

واما رأي، فيتفق في المعنى مع هذا الرأي كل الاتفاق ولكنه يختلف عنه في التعبير فلا اقول انه مرض وانما اقول انه غريزة جنسية يخضع لها المرء في صحته ولا يخضع في مرضه ، وسبب قولي غريزة اني لا اعترف بوجود شيء بين ذكر وانثي اسمه حب وانما اعترف بوجود شيء اسمه غريزة جنسية وقد يسأل سائل لمَ لمْ يأت هذا الاسم في تعابير الاولين من الناس ولا في تعابير المعاصرين فأجيب ان الناس انقادوا لشيء من الحياء فكانوا يخجلون من ذكر

الغريزة فيعبرون عنها بالحب ، وهذا الخجل الذي لا يبرره مبرر تملكهم اشد التملك نخلد «المجاز» وانمحى «الاصل»

***

وكانت الخادم قد وافتهما بالشاى فانقطع جرى الحديث والتفت كل منهما الى كوبه يذيب السكر .. مطرقاً ساكناً . وقد اخذ الفتاة شيء من التفكير فيما سمعت فما نبست ببنت شفة

المرأة ....

= ١ =

وجذبته اليها، فأخذها بين ذراعيه وأدنى وجهه من وجهها فشعر بانفاسها الحارة حول فمه، وبان له في هذه الانفاس انها جائعة، وان فيها رغبة. فلم يأبه للجوع الجنسي لأنه أمر طبيعي مصدره في تركيبها كله يزيله الحب بين الروحين وتزيله صلات خفية بينهما، وانما أبه للرغبة الجنسية لأنها ليست الا الهوى او بعبارة اكثر وضوحاً ليست الا عضواً يطلب العمل، ومصدرها الاقسام الحساسة من جسمها. وحق له ان يهتم بها لانه يعلم المرأة - كما تقول هي عنه - كل العلم ويعلم بنوع خاص ما هي هذه الرغبة، وكيف تكون عند صاحبته. فهو يخشى اذن ان تجتاحه عاصفتها فلا يتمكن من مقاومتها فيحدث ما لا يحب ان يحدث. وفكر في الابتعاد لكنه وجد نفسه بين ذراعين تشدانه فلا يستطيع الأفلات منها الا اذا آلمها. وقد آلى على نفسه ان لا يسبب لها أقل ألم، فصبر على مضض حتى اذا سمعها تتمتم بضعف متعمد: أحبك. ظهرت في نفسه الرغبة وأمحى أثر الخشية والجزع، فضمها اليه بقوة يرتشف من ثغرها

الرحيق العذب الزلال .

وتمضي ثوان ...

فاذا الرغبة قد زالت ، واذا هو قد عاد كالأول يخشى ان يطّور الامر من حال الى اخرى فيفلت منها مرغما يدفعه دافع خفي ، فتتهالك على المقعد الواسع حانقة غضبى فقد نغص عليها لذة هي كل امنيتها وقد تركها فريسة الغيظ والحنق يحرقانها حرقاً .

وما حيلته ؟

والطبيعة قد قضت بأن تظهر الرغبة عنده بسرعة وتتلاشى بسرعة بينما قضت بأن تظهر عندها بتؤدة ورود وتزول كذلك بتؤدة ورود .

فلما نظر اليها ورأى الغيظ يطير شرراً من عينيها عرف انها في ساعة غضب ، وانها اذا كانت غضبى لا ترضى بسهولة ولا تقنع بأية حجة فلم يجد خيراً من ان يبتعد عنها ، فجري في سبل الحديقة الضيقة فضاع بين اشجارها .

هو يحبها كل الحب لكنه في حبه أرق قلباً واكثر ادراكاً منها .

وهي تحبه كل الحب لكنها في حبها اصلب قلباً وأقل ادراكاً

منه .

وهذا هو شأن النساء عامة . كما هو شأن الرجال عامة ايضاً .

***

ولبث متوارياً بين الاشجار يستعرض ما جري له وما انتهى اليه أمره ويفكر في تبرير موقفه امامها ثم استفاق لنفسه فتصور هيفاء ناقمة ثائرة واعترف بأنه كان السبب في نقمتها وثورتها وتساءل أتحبني هل استطعت ان أروقها ، فهتف به هاتف انها كانت تحبك وانك كنت تروقها . فأوجس خيفة من «كان» ان يعقبها صدود واعراض وتزاحمت على مخيلته الافكار ، وكان يعتقد ان المرأة المحبة شاكة ابداً وان اسباب السعادة والهناء التي تتوفر لها لا تساوي ساعة تتغلب اهواؤها وتمتنع حبيبها ان يهيء لها اللذة فيها فأيقن من تنكرها واعراضها.

ولم يبرح مخبأه بين الاشجار ينتظر ان توافيه او ان تناديه اليها او ان يلمح شبحها عن بعد فيهرع اليها دون موافاة ولا نداء لكن شيئاً من ذلك لم يحدث فانقطع عن تفكيره واقبل ينصت بقلبه وسمعه فلا يسمع أي صوت أو أي حفيف ومضى عليه أمد غير قصير وهو على ما هو لم يستطلع منها خبراً ، فأستنتج ان ظنه قد صدق وان

هيفاء قد نفرت منه .

ما حيلته ؟ وهي بنت بكر لم تعدُ الثامنة عشرة ولا تزال تحت رعاية أبوين لا يدريان من أمرها الا انها فتاة ليست كبقية الفتيات تخضع لارادتها وتتنكر للشباب وتبغضهم فلا تريد ان تقف لهم على أثر. ويجهلان انها تهبه نصف حياتها اذا قبلها في ثغرها قبلة وضع فيها كل ما عنده من حيوية وحرارة وتذوقت فيها ما في الطبيعة من لذة ؛ أو ضمها الى صدره فشعرت بأنه سحق اعضاءها سحقاً ومزجها باعضائه وبأنه نزع قلبه مضطرباً خفاقاً وألقى به اليها فشعرت باضطرابه وخفقه ما بين صدرها وجوارحها .

هل يلين ؟

فيسلبها أثمن ما عندها ، ويسلبهم أثمن ما ادخروه . لا انه ليأبي فالرغبة ـ تلك الآفة التي كثيراً ما ارتعب منها حين أحس بها ـ تلح على الفتاة كل الالحاح فتريدها في غير صبر ، حتى اذا تهيأت لها وانتهت فعرفتها لهفت على ذكراها واندفعت الى الاستزادة منها اندفاعاً يعلم الله ماذا تكون نتيجته وماذا تكون عقباه .

لا انه ليأبي فيحفظ لها عفافها وطهرها ويحفظ لهما كنزهما ومحط آمالهما .

لكن اللذة !...

اللذة - التي تنفع الرجل لسعادته كما يقولون ويستطيع ان يبعد عنها او يستأخرها - تجب للمرأة لصحتها وسعادتها فلا تستطيع ان تستبعدها او تستأخرها .

فأما الشرف .. وأما الصحة ... أيهما يحفظ ؛ أيهما ؟

ايها الاله ان (دماغه) لم يعد يستوعب التفكير فانقذه مما ورّط فيه وأهده الى سواء السبيل .

***

- قلت لك اني لن افتح الباب فأمض من حيث جئت ولا تحاول ان تقنعني فقد علمت منك كل شيء . فقال :

— فدعيني أكلمك عن المانع الذي منعني عن الابعاد فيما ذهبنا اليه فلعلك اذا فكرت ملياً وجدت فيه الصواب واقلعت عن هذا العناد

فقالت :

- هذه خدعة لن تنطلي علي بعد الآن ، فأبتعد فأذهب الى حيث يحلو لك . فناداها:

— هيفاء ! فسألته :

- ما لك ؟ فأجابها :

– افتحي أبي أقر بذنبي وأتوسل اليك ان تصفحي . فقالت :

– لا سبيل الى هذا فقد علمت منك كل شيء . فقال :

– انك لتقسين علي يا هيفاء . فقالت :

– وكنت أشد مني قسوة في اعراضك . فقال :

– فقدفكرت فيك وفي اهلك وخفت عليك من طيش الشباب فقالت في سخرية ممضة :

– أتكون أرأف مني بنفسي ؟ فقال :

– بلى ، لقد تملكتك الرغبة فلم تتصوري العاقبة فصاحت به :

انك لتؤلمني اكثر من ذي قبل . أنصرف فلا أحب ان أراك الآن .

وتراجع عند هذا الاصرار وسار في سبيله الهوينا مطرقاً قد بدا على وجهه سيماء الحزن والاسى . وبينما هو يمشي اصطدم لدى الباب بآت فرفع اليه عينيه فأذا هي ميساء صاحبتها فحيتها فحياها فبادرها بالكلام .

– كنت عندها وحدث بيننا حادث فنفرت مني فأقبلت عليها استغفرها واستليها . فلم تغفر ولم تلن . وقد كنت عزمت على رأي وأردت ان افاتحها به لكن اعراضها واحتجابها في

معتكفها لم يمهدا لي السبيل الى ذكره فاذهبي اليها واشفعي لي عندها واجتهدي في ذلك حتى تروق فاذا راقت فاضربي لها موعداً عندك أوافيك فيه فنلتقي وآنذاك افاتحكما اثنيتكما به .

فسألته :

- فما هو ؟ فقال :

—هذا سري أحتفظ به الآن وأعدك ان أطلعك عليه اذا نجحت. في مسعاك ولعله يكون مفاجأة سارة .

ثم انطلق لا ينتظر منها جواباً .

فتابعت هي سيرها ..

٢

جلس الأصحاب الى مائدة حملت على ظهرها ما في البلد من الفاكهة والشراب ، واخذوا في انواع من السمر فانتهوا الى المرأة فقال كل منهم ما عرف عنها واستنتجه . وكانوا اذا اعجبوا بحديث أوراقهم وصف صفقوا طرباً ،ورفعوا كئوسهم الى شفاههم يشربون ما فيها في جرعة واحدة . فصاح أحدهم والكأس لا يزال دانياً على شفتيه :

- هل المرأة جامدة ؟ فأجابه مجيب :

- كلا انها ليست جامدة ، وانما الرجل الذي لا يعرف كيف يستثيرها لا يجد فيها الا الجمود . وأنبرى آخر فقال :

- وان هذا القسم من الرجال يدفعون نساءهم الى البحث عن احضان أخرى ولذة أخرى . فخري برجل هذا شأنه ان يبتعد عن الزواج . فوافقوه واذداد احدهم فقال :

- لا تيقظ رغبة المرأة ولا تزكو الا بتأثير الرجل فمثلها كمثل الزهرة لا تحيا الا بالشمس فخري برجل لا يستطيع ان يجعل من

جمودها حركة وهيجاناً ان لا يدنو منها فيسيء اليها والى نفسه .

وقال ماجن :

- ولعل اغرب واضحكه شيء قرأته في كتاب فرنسي(١) عن الزوج الذي لا يستطيع ان يقوم بواجباته ما اقصه عليكم الآن :

« يقول الشيوخ الالمان : يجب على الرجل الذي لا يستطيع ان يقوم بواجباته نحو امرأته ان يحملها الى جاره ؛ واذا لم يرضها هذا الجار ان يأخذها بهدوء الى بيت آخر ،ويضعها على اقرب سرير دون ان يؤلمها وينتظر خمس ساعات ، ومن ثم اذا لم يرضها من هناك ان يرفعها برفق ويضعها كذلك برفق وقد خاط لها ثوباً جديداً في قطار يقلها الى أول وأدنى معرض يقام في تلك السنة وهنالك اذا لم تكبح جماحها فليلق بها الى الشياطين ... قد يرضونها . »

فضحكوا ضحكاً متوالياً حتى اذا سأل سائل :

- ايها الصحب ان كلا منا تبّع زير .فليروِ لنا ما استنتج ووجد عندهن . سكتوا مرهفين الأسماع صاغين الى جواب من ينبرى من بينهم . فقال قائل :

- ان اللذة التي تبتهج لها ألمرأة وتهب لصاحبها نصف حياتها

---

(١) راجع كتاب (المرأة العاشقة) لهنري داليرماس

في سبيلها هي التي تستغرق عملية تهيئتها زمناً غير قصير فهي تعشق إذن الاخذ البطيء والاستيلاء السريع بشدة ولا تنتظرهما الا من عدد محدود من الرجال . وقد دلت التجاريب على انها مهما تمانعت عن اللهو مع زوجها أو رجلها بأية حجة كانت لا تستطيع ان تصبر على امتناعها وانما لا بد لها من الرضوخ فهي تحب إذن الرغبة والتوسل والاحاطة بها شيئاً فشيئاً. ويمتاز حبها للذتها بالعذوبة والرقة واللطف ، هذا ما لمسته في وقائع عديدة جرت لي معها ، وهذا ما يوافقني عليه هانري داليرماس في كتابه «المرأة العاشقة»، وقال ثانية :

- والمرأة الشاعرة تكون امرأة اكثر من غيرها فقد وجدت في خطيبتي التي تقرض الشعر وتحلق في أجواء الخيال في اكثر احيان فراغها المرأة التي لم أعرف بعد مثيلاً لها . اما العالمة التي تهتم بأثبات النظريات او دحضها بالبراهين والحجج ، فلها من علمها ما يلهيها عن أي شيء عداه ويأخذ بمجامع حواسها ويهدي من مشاعرها(١) فتكون كأنها ليست بذات قلب ولا بذات شعور وتعترف هذه بأن من الجنون ان تمضي حياتها على هذا النحو مقفرة جدباء . ولقد قرأت ما كتبته الآنسة صوفي كوفالسكي(٢) في كتابها

(١) من آراء لشوبنهاور (٢) كانت استاذة الرياضيات العليا في جامعة استوكهولم

«ذكرياتي» انه « . . . من الجنون ان تقضي المرأة حياتها في العلم واكثر من الجنون ان يكون عندها ذوق في العلوم كل شيء في الحياة يبدو لي عديم الفائدة. فلم؟ أليس لاني لا يحبني أحد .. قد كنت أستطيع ان اعطي حبيبي ما لا تعطيه امرأة غيري»

ويقول هانري داليرماس ايضاً في كتابه المرأة العاشقة «والانكباب على العلوم في الواقع يكسب الوجه سيماء الرزانة فلا يسر الناظر اليه ويفقد العينين قوتهما وسرهما وبريقهما فلا يبقى لهما مفعول وتتلاشى خفة الروح التي لا يعشق الرجل في المرأة غيرها . والمرأة يحجبها لأن تسعد في الحياة ان تكون جميلة أخاذة وهذا دورها في الحياة فاذا لم تكن كذلك فقد لا تجد لها بين اترابها منزلة في قلب الرجل.

ثم قال بعد صمت قصير: ولست أدري هل اذهب مذهب (سان بون افانتور) فاقول ان كل خبث يهون امام خبثها ومذهب (سان سيبران) فاقول ان معاشرتها اقتحام للغواية وان كل شيء فيها متحفز على جرح من يقربها أم....

وعلا صوت من الباب يقطع كلامه ويقول:

- كلا القولين صحيح ، كلا القولين صحيح .

فالتفتوا الى المفاجيء في غير انذار فاذا هو سمير ، فصاحوا به

فرحين مرحين والتفوا حوله وسألوه بالحاح :

- الام تستند ؟ الام تستند ؟

فأجاب ، لكنه لم يزد على انها تسبل على الحياة الوانا متباينة ، فتجعلها جنة فيها كل النعيم وكل الهناء حيناً ، وتجعلها جحيماً فيها كل العذاب وكل الشقاء حيناً ..

الانتقام

كل امرأة تخال انها اهل للحب ، ولا يعجبها تفضيلها على سواها لكنها لا تريد ان يؤثر عليها غيرها . فاذا كان ذلك فقد غضبت وبعث العضب فيها كوامن الشر فنشأ عنها الانتقام فانتقمت باساليب جديدة وهائلة قد لا تخطر للرجل .

والرجال كما تعلم اقل عدداً من النساء فالتنازع بينهن عليهم اما لاستجلابهم واما للاستئثار بهم أمر طبيعي جداً يجعل المرأة اكثر ولعاً بالانتقام واكثر خضوعاً لهذه الغريزة .

وقديماً قال الفونس كار : «الحب بين امرأتين كالحب بين عطارين متقابلين في محلة واحدة» وقالت مار كيزة دولامبير : «تجتمع النساء بالضرورة لا بالذوق» وقال غيرها لا يقوم بينهن حب متبادل

لانهن غريمات بعضهن لبعض .

الغيرة

تغار الفتاة من اترابها المتزوجات حديثاً ، والام من ابنتها الكاعب الحسناء ، وتغار الخادمة من زميلتها ؛ والسيدة من وصيفتها الجميلة ، والوصيفة من سيدتها الغنية .

واما الشريفة التي لا تستطيع ان تتذوق غير لذات زوجها ، فتغار من المبتذلة التى تستطيع ان تتذوق مختلف الوان اللذات وهذا نوع من الغيرة شديد الخطر ، لكنه خفي مكتوم لا تظهره لك المرأة ابداً وتحاول جهدها ان لا تتركك تشعر بأنه يملكها .

من كتاب «المرأة العاشقة» لماري داليرماس

صديقي

قد سعيت لك عند هيفاء ، واستطعت
ان استلينها واستضربها وعداً بالحضور الي
في صباح الغد فكن عندي في الموعد
المضروب ،

«ميساء»

مشكلة الحياة ....

١

- حسبك لا تشعشع الحديث بالصبابة ، ولا الاعتذار بالاستعطاف ، فانك قد تأخرت فأين كان هذا التأخير ؟ . فقال :

- في تحضير المفاجأة ، التي كنت قد وعدتكما به . فانبرت هيفاء ترسل كلامها الى صاحبتها :

- اما زلت تعتقدين صدق تودده وتقعين في شباك مكره .

فقال باسماً :

- يسرني انك تكلمت ولو كان كلامك تهمة ووصماً .

فلم تملك نفسها من بسمة عارضة ومضت على ثغرها وميض البرق ثم عبست فقالت :

- هذا شأنك، الاعتذار والتوسل اذا اخطأت، والعبث والسخرية اذا تيسر لك . ميساء أمثل هذا دعوتني ؟ ونهضت تحاول المضي فاندفع نحوها يمسك بها واندفعت ميساء توصد الباب . فقال :

- لن اقدم بين يدي القصة لشيئاً واكتفي بان اقول :

لقد خطبتك الى ذويك وشدهت الاثنتان لحظة ثم تكلمت صاحبته:

— انت ؟ خطبتني الى ذوي ؟. فقال :

— انا ! لا ... فسألته حيرى :

— فماذا كنت تريد ان تقول : فقال :

— أردت ان اقول ان الخطبة قد تمت وانك الآن خطيبتي .

فصاحت به :

— ما رضيت بك صديقاً فكيف ارتضيك خطيباً ! قال :

— هذا كلام لا تلبثين ان تنكريه على نفسك اذا عاد اليك رشدك واستوعبت قولي .او اذا كنت لاتضمرين غيره . فاني اعلم انك فوتحت بالامر فاذنت :

— واذا أذنت انا فهل الامر لي ؟. هنالك ابي ؛ هنالك امي .

فاجابها :

— ليس اليهما من الامر شيء(١) فالبكر لا تنكح حتى تستأذن ، والابوان اذا أتاهما من يرضيان بدينه وخلقه ، فلينكحاه (٢) فسألته

---

(١) جاءت فتاة الى رسول الله (ص) فقالت : ان ابي زوجني من ابن اخيه ليرفع بي خسيسته . قال فجعل (ص) الامر اليها فقالت قد اجزت ما صنع ابي ولكن اردت ان اعلم النساء انه ليس الى الآباء من شيء .

(٢) قال النبي (ص) لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن .

(٣) وقال (ص) اذا اتاكم من ترضون دينه فانكحوه .

ميساء :

– أين كانت المفاجأة في هذا الامر ، فقد فوتحت فيه وعلمته من قبل ان تأتيها انت بنبئه . فقال :

– المفاجأة كانت في اني لم اصنع ما املت منى ان اصنع فلم اذهب الى ابيها فاخطبها ، وانما كلفت امي فذهبت الى امها فخطبتها فاتبعت في ذلك رأياً رآه النبي (ص) لخولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون حين سألته ان يأذن لها في تزويجه . (بلى فأنكن معشر النساء أرفق بذلك) وحققت به غاية كنت اضمرها واريدها فقد احترمت آراء امي فجعلت الامر لها . أفليس في احترامي آرائها تقديساً للمرأة ورفعاً لمنزلتها . والمفاجأة ايضاً اني سأطلب اليها بعض امور وأشترط ان ينفذها كلانا تأميناً لهنائها وحذراً من تنغيص صفو ايامنا :

أبتغيها ان تكون زوجة محصنة غير مسفحة ولا ذات خدن كما أعدها ان اكون زوجاً محصناً غير مسفح ولا ذا خدن ، لها مثل الذي عليها ، ولي مثل الذي علي ، لا اطالبها بشيء الا وقد هيأت لها مثله من قبل ، فاتزين لها كما تتزين لي ، واحترمها كما تحترمني ، فلا أتحكم بها او اتخذها عبدة استذلها واستخدمها ، ولا تتحكم بي او تتخذني عبداً ، وابتغي ان نكون عدا هذا زوجين صالحين قانتين

نحفظ الغيب فلا يطلع أحد على ما بيننا ان خيراً او غير خير .

تحلى بالجواز ، وتبادل الثقة فلا ندع للغيرة سبيلا الى نفوسنا ونرعي اقاربنا فلا نمهد للبغض علينا سلطاناً . لا نباري سوانا وانما ندفعه الى مباراتنا ، ولا نسرف ولا نقتر ، ونكون غير سريعين في الغضب وغير مهددين بالفراق . نضمن اتحادنا وارتباطنا بالحب الصادق الدائم ، ونبعد كل البعد عن الحقد ، والنفور ، والنزاع .

واصرح بأني لا اطمع بمالها وانما ابقيه لها ولترفها فلتصنع به ما تشاء . ولا ابيح لنفسي ان اظلم او أقسو ، ولا ازدريها ، ولا أضغط عليها ولا استبدبها ! ولا اكتم عنها أي شيء فاشاطرها آلامي وافراحي وتشاطرني آلامها وافراحها .

ولا احب ان يكون في بيتي كلفة فتناديني بيا سيدها وأناديها بيا سيدتي ، واحب اذا غضبتُ ان تظهر في مظهر الاباء والشمم ، واذا رأت في اعوجاجاً ان تقومه فليس اعذب علي من ان تكون امرأة قوية في نفسها ، وقوية في ابائها ، وقوية في آرائها .

اني أرى هذا كله ، وأحب هذا كله وأريد ان انفذ هذا كله ، فاذا كانت هيفاء تراه وتحبه فلنكن شريكين ولتكن عوناً لي على تنفيذه ثم نظر اليها فرآها باسمة هاشة يسطع في وجهها بريق الامال

والاحلام . ففتح لها ذراعيها فارتمت بينهما فرحى طروب . فقال :

- الان أرتضيتني صديقاً وأرتضيتني خطيباً .

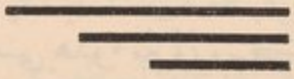

٢

هذه الايام السعيدة من الحياة لن ندعها تمضي مضي الزمن وانما نستعيدها في كل يوم وكل اسبوع ، فادعك تشعر ابداً بانك خطيبي وادعك لاتحسب ان «شهر العسل» قد انقضى ؛ فاحفظ لك سرورك وبهجتك واحفظ لنفسي هدوء منزلي وسكونه .

سنتخذ من يوم الجمعة عيداً ننسى فيه ما يحيط بنا فنغرق في هناء ونعيم ، كهذا الهناء والنعيم اللذين قد غمرنا الله بهما .

ستكون رجلاً من الرجال الا انك بسّام طروب واكون امرأة من النساء الا انني بسامة طروب فاحتملك بأناة ورفق ، وتحتملني كذلك بأناة ورفق فلا تخاف مني نشوزاً ولا ذُرّاً ولا جرأة . لاني لك كما أردت ان تكون انت لي .

سأحفظ عهدك ماحفظت عهدي ، واقوم على وعدي ما قمت على وعدك فاذا ثبت ثبت واذا حدت عن الطريق القويمة هديتك اليها فان لم ألق منك غير الاعراض قابلتك بما لا يرضيك ولا يسيء الى ربي فتعود الي مستغفراً .

اما مالنا فسنستثمره ، وننميه ، ونحفظه للعوز والفاقة او ندخره اذا لم نفاجأ بهالأولادنا من بعدنا ، واني أريد ان يكون لنا ميزانية لا نحيد عنها في صرفنا ويحاسب كل منا نفسه فيرى اذا كان يبذر او يقتر . فيبعد عنها ويتخذ حالة وسطى ، واما اطفالنا فانهم في عهدي وليس لك عليهم اي سلطان فأنا الراعية في منزلي ، وانا المسئولة عن رعيتي ولكن لك الاشارة علي في تقويمي اذا رأيت في الاعوجاج على اني أعدك ان ابذل جهدي فلا أعوج ما استطعت .

كان ينظر اليها في اغتباط فيتحسس في كلامها روح الزوجة الطاهرة الصالحة ، ويجد فيها المرأة التي تعز الرجل اكثر من نفسها فتحصر له وقتها وصحتها ووجودها فيعجب بها ويسكت فلا ينبس بحرف . وكانت تتكلم بكلام منسجم طلي لا تكف فيه ولا تصنع فيلذ ويطرب حتى اذا انتهت ، اوخيل اليه انها انتهت ـ فقد توقفت تستجمع شوارد افكارها ـ انطلق يصور لها ما اختلج في نفسه ، وما تكون لديه من اعجاب واغتباط ولذة ووعدها ان يقوم بكل ما رغبت اليه وبحق كل ماشارت به عليه فيبقيان خطيبين ويجعلان يوم الجمعة يوم عيد ينسيان فيه ما لقيا . طول الاسبوع الماضي ويتهيأ ان للاسبوع المقبل بنفس فارغة من الهموم ، مغتبطة بالحياة . فقد رأى

فيما قالت اصوب الصواب، ووجد اسدد الرأي .

ثم التفت الى ماحوله فاذا الشمس مالت الى مغيبها فانعكست على سطح البحر الرقراق فبدت فيه كانها قرص من ذهب لها بريق ولها لموع كما اعتكس الافق الاحمر على الماء فبدا منظر الغروب فاتناً اخاذاً .

ونظر الى المائدة فاذا ماعليها من جليد قد فقد تجمده فذاب فعاد مائعاً حاراً فنادى الغلام فوافاه فطلب اليه ان يحمل ماامامه ويعود بغيره فامتثل للأمر .

وانصرفا بعد حين، وقد اسدل الليل ستره وانبعثت الانوار لألاءة وضاءة مشيعين بانظار الاستغراب والاعجاب ، فقد كانت سافرة لكن سفورها كان غير مألوف وغير معهود : لفت رأسها بوشاح فحجب شعرها كله او اسدلت على كتفيها «برنساً» أحاط بعنقها فلم يظهر ، ووصل الى ساقيها فحجب تقاطيع جسمها وتكوينه كانت سافرة لكنها احجب من المتحجبات ، وتملك حريتها فلا تفرط فيه تفريط بنات جنسها من ذوات الحجاب او ذوات السفور .

أخي

كتبت الي تسألني عن رأي المرأة الجاهلية في الزواج، فلاأجد خيراً من هذه القصة التي يرويها اكثر كتب الادب ، فاسردها عليك فتطلعك على ما تريد :

« اجتمع اربع فتيات لذي الاصبع العدواني فتناجين بأمانيهن ، وقد عقابن ابوهن فلم يزوجهن . فقالت الكبيرة :

الا ليت زوجي من اناس ذوي غنى
حديث الشباب طيب النشر والذكر
لصوق بأكباد النساء كأنه
خليفة جان لا ينام على وتر

وقالت الثانية :

الا ليته يعطي الجمال بديئة
له جفنة تشقي بها النيب والجزر
له محكمات الدهر من غير كبرة
تشين فلا فانٍ ولاضرع غمر

وقالت الثالثة :

الا هل تراها مرة وجليلها
اشم كنصل السيف عين المهند
عليماً بأدواء النساء ورهطه
اذا ماانتمى من اهل بيتي ومحتدي

وقالت الرابعة :

- زوج من عود خير من قعود .

فاوجزت فجاء ايجازها ابلغ من أى اطناب وأي اسهاب فالجاهلية اذن كما رأيت تريد ان يكون بعلها ثرياً في عنفوان الشباب وجميلا فاتناً ، فاذا لم توفر فيه هذا كله او بعضه فلا تأبي وانما ترضى به حتى ولو كان من عود ،

واما الزوج الشيخ فقد قالت امرأة ابي العاج الكابي وكان قد تخطى الشباب في زوجها :

شنئت الشيوخ وابغضتهم وذلك من بعض افعاليه
ترى زوجة الشيخ مغبرة وتمسي لصحبته قاليه
فلا بارك الله في عرده ولا في عظام أسنه البالية

فتستطيع انت ان تلمس في شعرها ان الجاهلية لا تحب الزوج الشيخ ، وانما تكره وتبغضه ولا تبارك فيه فتتأكد من كلامي.

وبعد ،

احسبني قد قمت ببعض ما يجب علي واعتذر اليك عن هذا الايجاز ، فقد كان لي من أعمالي ما يمنعني عن الاسترسال .

«سمير»

البحث الرابع

فى المجتمع

أثر المرأة

حريتها

تعليمها

١

انبعث الصبح ريان الندى عطر الانسام فاستقبله سمير وبعض ذوى قرباه في جنة تعطفت اغصان اشجارها فتهدلت شعورها وانساب الماء في جداولها وسواقيها رقراقاً شادياً وحلقت الطير في فضائها الصاحي فرحة صادحة واخذوا في انواع من الحديث وقد التفوا حول حوض تكتنفه عرائش وخمائل من الزهر. الا ان الحديث كان جافاً في اكثر احيانه تنقصه الطلاوة وتنقصه العذوبة وقد شعر كل منهم بانه لا يجد لهذا الصبح الجميل أي جمال ولا يتنشق في هذا النسيم العطر أي عطر، وشعر الى هذا بفراغ ووحشة ولكنه لا يعرف ما الباعث الى هذا الفراغ والوحشة فالجو كان فاتناً في بهاء والصحب كان منعقداً في انسجام والطبيعة كانت ساحرة في روعة. وكثيراً ماحاول ان يتخلص من الكلام فيسكت فيصغى الى نفسه فيحدثها او تحدثه، فتجيش هواجس المنى في صدره، وتنتابه نوازع الآمال.

ولما جاءتهم هيفاء بأكواب الشاي كان المجلس قد نال أوفر نصيب

من الملل والفتور ، او قد نال ما يفوق نصيبه الوافر من هـذا الملل والفتور . وتلتها ميساء ووافتها اختها . فانتظم الجمع حول المائدة كل امرأة الى قرب زوجها وعاد الحديث فانبعث حيـاً يجرى في بهجة ومرح، فاذا النفوس غير النفوس، واذا المتجاذبون اطرافه غير الذين كانوا يتجاذبونه من قبل، واذا الكلام موزون في تفكير وروية، لا يرسل على سجيته ارسالاً ، فلا تجد فيه هراءً ولا جزافاً . تجري فيه النكتة اثر النكتة ، والفكاهة تلو الفكاهة، فلا تسمع الا ضحكاً عالياً ، يشيع في رنينه عذوبة وسحر :

قال احد الرجال :

– المرأة مصنع الرجل تنتجه في هدوء وسكينة ، فيكون من انتاجها اعلام الشعوب، او زعماء تنقاد اليهم الامم، او ساسة يكونون اما صواعق حرب تأتي على الارض فتحصد من وما عليها واما ملائكة سلم تهبط على هذه الارض فتغمرها بالدعة والسعادة والهناء .

والبيت مدرسة العالم الاولى ينشأ فيها الطفل فيخرج بعدُ ، بطلاً يطأ هام الامم اذا نفخت فيه امه روح الاقدام والقوة او داهية بارعاً يلعب بعقول القادة والحكام اذا لقنته كيفية تدبير ورسم الخطط، او شاعراً مُلهماً اذا علمته كيف يصوغ ما يولده الخيال، او اقتصادياً اذا حببت

اليه روح الاقتصاد والتوفير .

والبيت مدرسة العالم الاولى ينشأ فيها الطفل ، فيخرج للناس شقياً يريع العالم بحوادثه واجرامه اذا لم تهده امه الى سواء السبيل او لصاً يضجر منه الناس ويخشون على اموالهم من شره ، اذا لم تربه على الفضيلة والنبل ، او خائناً يتلاعب بمقاليد البلاد والأمة فيغدر بها ويورثها الدمار والاندثار اذا لم ترع فيه الوفاء والامانة والصدق .

وهذه ام عبد الله بن الزبير ، تخلق من ابنها اليائس رجلا جديداً وتجعل منه ناراً حامية وتصور له المجد دامياً فانياً ، وهذه الخنساء وغيرها وغيرها من نساء العرب اللواتي بعثن في الرجال كوامن القوة والاقدام والرجولة يعطيننا درساً وافياً في اثر المرأة في المجتمع والرجل فلعل رجالنا ينظرون الى هذه الناحية فيفسحون في المجال للمرأة فتسير نحو الكمال قُدُماً فتكون اماً كما يجب ان تكون الام وامرأة كما يجب ان تكون المرأة ، ولعل نساءنا ينظرن الى هذه الناحية ايضاً فتيقظ فيهن روح الام فيدركن ما عليهن وما لهن ويدركن ان الطفل عمل من اعمال الحياة يلقين به الناس ويلقين به التاريخ ويلقين به الامة ليتقين الله في هذا العمل وليجتهدن ان يكون عملا صالحاً تظهر فيه آيات الخير والبر ، وآيات الاخلاق الفاضلة والخصال

الحميدة وآيات الكمال والزجولة

ثم قال بعد صمت قصير

هذا بعض محاضرتي قد اسردته عليكم مختصراً موجزاً على ان تسمعوا ما تبقي هذا المساء فتطلعون على افكاري وآرائي فيما يتعلق بالمرأة . وانفرط العقد ليجتمع في المساء المذكور .

٢

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم
امهاتهم احراراً

«عمر بن الخطاب»

كان يتدفق في كلامه تدفق السيل

من سلب المرأة حريتها ؟.

آالدين ؟...

يقول الله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ...) «الآية» . فيثبت ان الولاية المطلقة للنساء المؤمنات كما هي للرجال المؤمنين يدخل فيها ولاية الاخوة والمودة والتعاون المالي والاجتماعي ويدخل فيها ايضاً ولاية النصر الحربية والسياسية فيعطيها حرية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونقد من اخطأ من الحكام والخلفاء

وتقويم من اعوج منهم وحاد عن الصواب(١) ويعطيها الى هذا حرية الامانة والاجارة للحربين فتمنع الازى عمن تشاء وتجير من تشاء(٢) .

ويقول تعالى : (يا ايها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ... الى آخر الآية) فيبايع النبي النساء على ذلك ثم يبايع عليه الرجال(٣) فلا يهملهن الله كما يهمل اي سيد عبده او خادمه وانما يجعلهن في منزلة رفيعة ما عرفنها من قبل ولن يعرفنها من بعد .

اذن فان ديناً هذا شأنه ، وهذه اوامره لا يمكن بحال من الاحوال ان يستعبد المرأة او ان يجعلها اداة في يد الرجل يتصرف بها كما يحلو له وكما يطيب .

ام النبي ؟...

---

(١) خاف امير المؤمنين عمر تغالي الناس في المهر فنهى عن ذلك واوصى ان لا يزيدوا على الاربعمائة درهم فاعترضت له امرأة من قريش فقالت : اما سمعت ما انزل الله (... وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال : اللهم عفواً امرأة اصابت واخطأ عمر . ثم اعلن رجوعه عنه .

(٢) قالت ام هانيء للنبي (ص) وهي بنت عم ابي طالب يوم فتح مكة : انني اجرت رجلين من احمائي فقال (ص) قد اجرنا من اجرت يا ام هانيء .

(٣) قد ذكر ذلك رواة الحديث ؛ ومنهم البخاري .

يقول الرسول (ص) «المرأة سيدة بيتها راعية في بيت زوجها ، وهي مسئولة عن رعيتها» فينتشلها من عبوديتها ويرفع من شأنها فاذا هي سيدة آمرة لا خادمة خاضعة .

ويقول الغربيون (في مجمع ماكون سنة ٥٨٦ م) ان المرأة انسان لكنها خلقت لتخدم الرجل فينقض النبي (ص) قولهم ويدحض رأيهم ويعلن للعالم انما النساء شقائق الرجل وانما المرأة سيدة بيتها

ويطلق لها حريتها في زواجها . حتى انه لينصح جارية اعتقها زوجته عائشة قد هجرت زوجها بعد ما ملكت امرها فتسأله: اتأمرني فيقول لا انما انا شافع . ولا يزيد فتصر هي على عنادها .

ويطلق لها حريتها في اللهو البريء حتى لتأتيه امرأة فتقول له : اني نذرت ان اضرب على رأسك بالدف فيقول لها ان كنت نذرت فأوفي بنذرك . ويسمح لها ان تحضر الحفلات ، فيدعو عائشة لشهود فتيان الحبشة الذين كانوا يلعبون بحرابهم بين يديه فيطأطئ لها عاتقه ويحيط وجهها بيده .

يتضح مما تقدم ان هذا النبي (ص) لا يمكن ابداً ان يكون قد استعبد المرأة او منع عنها حريتها .

فمن السالب اذن ؟ الخلفاء ؟

كان ابو بكر يحب زوجته ويخافها وكانت تقسو عليه وتغلظ له ، فيفرق منها فلا يخالفها فرآها ذات مرة وقد طابت نفسها فعزم على ان ينتهز الفرصة فيشكو لها قسوتها عليها تلين فقال يا فلانة قد والله احرق قلبي.. ولم تدعه يتم الكلمة فحددت نظرها اليه وقطبت وجهها فقالت ماذا احرق قلبك فخاف ابوبكر ولم يستطع ان يقول لها سوء اخلاقك وانما قال : حب ابي بكر(١)

وكان عصر بني امية من بعده عصراً قوي فيه سلطان المرأة وذل الرجل ، فقال بن قيس الرقيات لعائشة بنت طلحة :

عجباً لمثلك لا يكون له خرج العراق ومنبر الملك

وكانت سكينة بنت الحسين تحت زيد بن عمر بن عثمان فخرج الى مال له مغاضباً لها ـ وكان عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة ـ فأقام سبعة اشهر فأستعدته سكينة على زيد وذكرت غيبته مع ولائده سبعة اشهر وذكرت انها شرطت عليه ان مسّ امرأة او حال بينها وبين شيء من ماله او منعها مخرجاً تريده فهي خلية . فبعث اليه عمر فأحضره وامر ابن حزم ان ينظر بينهما فجاءت سكينة .فقال ابن

---

(١) وكان علي بن ابي طالب يقول (لا يحل لرجل ان يقبل يد احد الا امرأته من شهوة ، او ولده من رحمة .

حزم ادخلوا سكينة وحدها فقالت · والله لا ادخل الا ومعي ولائذي فادخلن معها ولصق زيد حتى كاد يدخل في جوفه خوفاً منها وجرت المحاكمة ونشب نزاع بينها وبين القاضي ، ثم لما كلمها زيد وخضع لها قالت : ما اعرفني بك يا زيد والله لا تراني ابداً أتراك تمكث مع جواريك سبعة اشهر ثم أعود اليك والله لا تراني بعد الليلة ابداً .

ايها السادة .

لا يعقل ان ابا بكر الرجل الذي لم يستطع ان يشكو لامرأته قسوتها ، منع عن المرأة حريتها ، ولا يعقل ان تكون المرأة ـ وقد تعجب الشاعر كيف لا يأتيها خرج العراق ولا يكون لها منبر الملك وقد خاف زيد وهو رجل ، وبين يديّ والٍ كعمر من شرها ـ غير مالكة لحريتها، لا تتصرف بها كيف تشاء، وانما يعقل ان نكون نحن الجهلة الظلمة الذين سلبوا المرأة حريتها فسلبوا أعز عزتها وأمنع حقوقها .

فلنكفر عما جنيني وجنا اسلافنا القريبون ولنختطّ خطة اسلافنا البعيدين فنعيد اليها كنزها السليب ونعطيها حقها الهضيم . فأنها شقيقتنا وسيدة بيتنا وانها مالكة زمامنا ومسيطرة على قلوبنا وافكارنا

ايها السادة ان الام التي تهز العالم بيسارها(١) لا تكون عبدة ولا خادمة، وانما تكون حرة سيدة كما نحن احرار أسياد.

***

وعاد يتدفق في كلامه:

لا أريد ان اذكر ما نادى به في القرون الوسطى رجال الدين في أوربا كأمثال جاك دولامارك وجيرم سافورنارول في وجوب تقييد المرأة وعدم تعليمها وتثقيفها ولا ان اذكر ما قال جان جاك روسو في أنها خلقت لتعجب الرجل فهي متاع له، وما كان من احتقار غوته لها وانصرافه مع روسو عن تعليمها وتربيتها، ولا أريد كذلك ان اذكر ما كان من بغض نابوليون لها في القرن التاسع عشر، وانكار جوزيف دمستر عليها كل ابداع علمي ونفي برودون أثرها وقدرها في الاختراع ونفي لامونيه قوة التفكير عندها وبلوغ منزلة الرجل في العقل والادراك واعتبار كوى بأن اللواتي يقبلن على تعلم الطب مجنونات حقاً ... لا أريد ان اذكر ذلك كله لأني أجد في ذلك كله وصمة عار ثبتت على جبين هؤلاء فمحت كل أثر من الآثار التي أبقوها فنالوا بها تقدير الامم واعجابها.

---

(١) من كلام نابوليون

فما دامت المرأة انسان ـ وهي انسان كما أقر بذلك مجمعهم المعقود في ما كون ـ فلها عقل كعقل الرجل . ولها تفكير كتفكيره وادراك كادراكه واذا أنكر الرجل عليها هذا فلأن أنانيته هي التي تفرض عليه الانكار فرضاً ولأن الأثرة تملك على مشاعره وحواسه فلا تدعه يفكر الا في نفسه .

وهنالك امر آخر فأنا لا استطيع ان انكر وانتم لا تستطيعون ان تنكروا أنا نرى في الناس دائماً ما نقصد ان نراه فيهم كما نرى في الاشياء دائماً ما نقصد ان نراه فيها فاذا رسمنا مربعاً في داخله مربع صغير آخر ، ونظرنا اليه فاما ان نراه يمثل حجرة او داخل ممر ، واما ان نراه يمثل هرماً ناقصاً فاذا قصدنا ان نرى فيه احد هذين الشكلين رأيناه ، ذلك لأنه كان في فكرنا قبل ان يكون في الورقة ، فوجدناه كما تصورناه .

تلك حالنا مع المرأة : ننشطر الى فريقين ففريق يتخيل انها غير ذكية او اقل ذكاء من الرجل فيراها كما يتخيلها وفريق يناقضه فيتصورها ذكية تماثل الرجل ، او تفضله فيراها كما تصورها . لكن الامر الذي لا نستطيع ان ننكره ولا ان ننكابر فيه هو انها انسان فهي أذن كالرجل ذكية تستطيع ان تتلقى العلم ، وتستطيع ان تنبغ فيه فتبلغ أرفع قمه .

قد تختلف درجة الذكاء غير ان هذا الاختلاف لا يأتي دليلا لنا ضدها وحجة عليها فمن ينكر ان في الرجال بلهاً سذجاً وان فيهم مجانين ومجاذيب تمتلي بهم الشوارع وتعج الطرق ويتبرم بهم الناس . فهل يعيب النساء ان تكون فيهن بلهاء او حمقاء او مجنونة ، وهل يجيز الحق والوجدان ان نتخذ من هذا حجاباً نسدله على انانيتنا واثرتنا فنخدع الناس ؟ كلا ، بل لان الضمير ليدعونا الى الانصاف وان الوجدان ليحفزنا على احقاق الحق ..

ايها السادة

لن اطيل عليكم الكلام في بحث مفروغ منه وانما اذكركم بان الله تعالى ارسل نبيه (ص) في الأميين ليخرجهم من ظلمات الجهل الى نور العلم ، وبأنه تعالى قد مدح العلم في كثير من آيات قرآنه ، كما مدحه رسوله في مواضع شتى من احاديثه . واذكركم الى هذا بان النساء قد اشتركن مع الرجال في اقتباس العلم فكان منهن راويات الحديث ، وكان منهن شاعرات واديبات ؛ وقاضيات ؛ وعالمات مصنفات ؛ وبأن محمداً (ص) قد بلغت عنايته بتعليم النساء وتربيتهن أبعد مدى فجعل فيمن يؤتيهم اجرهم مرتين «ايما رجل كانت عنده وليدة فعلمها ، فاحسن تعليمها وأدبها فاحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله

اجران »

يشير هذا الحديث بوضوح الى ان المرأة يجب ان تعلم احسن التعليم وان تؤدب احسن التأديب فلا يبقى لمستأثرين العتاة اية حجة تؤيد دعواهم ولا يدع لهم أي برهان يثبت باطلهم فلنعمل به فترفع الصخر ونزيل الاشواك من سبيلها فتمضي فيها قدماً ، ولنفسح عن منهله فترشف منه مايروي ظمأها ولتقتبس من نوره ما يبدد ظلماة حياتها الحالكة ، فنضمن اذن لنا حياة سعيدة راضية ، ونهيء للغد جيلا عالماً مدركاً يستطيع ان يأمن اليه الوطن ونستطيع ان نضجع ضجعتنا الاخيرة مطمئنين الى مستقبل هذه الأمة ودعتها ورفاهيتها وعلو كعبها .

البحث الخامس

الحجاب والسفور

بحث

موضوع بحثي

١

اما هي فكانت لا ترى رأيه في السفور وانما كانت تهاجمه أشد هجوم في هذا الرأي وتنتصر اصدق انتصار للحجاب وقد عجب هو كل العجب لهذه البادرة تبدر من زوجته وسمع منها براهينها وحججها فما صدق أذنيه ورأى فيها حماستها في الدفاع وحماستها في الهجوم فما صدق عينيه لكن صوتها يدوي وحركاتها تبدو ظاهرة مؤيدة فيتأكد من ذلك ويقنع .

قالت :

– الحجاب رمز المدنية والعقل ورمز الرزانة يحفظ المرأة من الخروج على ما خلقت له(١) فكيف تريد ان تمحي هذا الرمز وان تزيل هذا الحافظ الأمين ؟ فقال :

– لا أريد ان أتهمك بأنك تلقين الكلام جزافاً فاني أعتقد ان الحرارة التي تملكتك في دفاعك عن الحجاب قد استحوذت عليك كل الاستحواذ فأندفعت لا ترين فضيلة الا وتنسبينها له فقلت انه

(١) من كلام مصطفى غلايني

رمز المدنية والعقل فلم أجد في اكثر المتحجبات اثراً من آثار هذه المدنية وهذا العقل ، وقلت انه رمز الرزانة فلم أظفر منه في المتحجبات اللواتي نراهن في الاسواق والمخازن التجارية والجنات وأماكن التنزه بأكثر من خفي حنين تمشي الواحدة منهن وكأنها «رأس مئذنة»(١) او «دمية ازياء»(٢) وتبدي ضروباً من الغنج والدلال تسلب بها عقل العجوز الهادئ الوقور قبل ان تسلب عقل الفتى الطائش الغرور . .

فقاطعته :

- وانما تريد ان تتهمني بأني أحول بين المرأة وبين السفه والخلاعة، أي اني احول بينها وبين دور الرقص فلا ترتادهن ، وبينها وبين الشباب فلا تتعرف على خلعائه وبينها، وبين الخمر والميسر فلا تفقد عقلها ومالها .

قال :

- ماادراك ان المتحجبة لا ترقص ولا تشمل من الخمر ولا تخسر في الميسر ؟.. لقد اذكر اني زرت سيدة تبدو عليها ملامح الجلال والوقار فجلست إلي تحدثني عن ابنتها وهي استاذة في مدرسة . فعرفت انها

---

(١) اشارة الى الملاءة السورية القديمة (الخراطة)

(٢) اشارة الى الملاءة الحديثة التي هي كل شيء الا الحجاب

انشأتها على العلم والادب فهي عالمة اديبة وانشأتها على التطريز والخياطة فهي مطرزة مخيطة وانشأتها اخيراً على الفن فهي فنانة بارعة . ثم رأت اترابها يتعلمن الرقص فلم تشأ ان تحرمها منه فعلمتها فاذا هي راقصة ماهرة .

واذكر اني كنت أسير في شارع عام اذ وقفت «عجلة» هبطت منها سيدة وسارت في انثناء وميل ، فاخذني هذا منها ، فتريثت اجيل الطرف بينها وبين العجلة فاذا برائحة تنتشر في المكان فتملؤه فشممت الخمرة فدنوت ونظرت فاليفت سيدات متحجبات عرفت منهن «فلانة» ، قد جلس بعضهن في احضان بعض واتخذن وضعية ينفر منها المرء ويشمئز ، ثم نظرت الى السيدة التي نزلت فاذا ببرقعها قد اطاره الهواء فمضت تجري وراءه متسكعة فلا تلحق به .

واذكر عدا هذا اني دخلت بيتاً أمت اليه بصلة ، فرأيت الزوج يلاعب زوجه الورق وتلاعبه وما خرجت حتى قد خسرت ليرة واحدة ... وسمعت ان اختين احداهما متزوجة تلعبان مع الزوج وابن اخيه في كل ليلة فتخسران ويخسران مبلغاً غير قليل . وعلمت ان اللعب اصبح «ميزة» تحلى بها اكثر المتحجبات وموضوعاً يتحدثن فيه في ملتقياتهن واندیتهن فلا اظن بعد هذا ان الخوف على الاخلاق قد اصبح يطلب الحجاب

وبعد فان آية الحجاب(١) لا تدل بأي تصريح او تعريض على تعليله بالخوف على شرف المرأة وحصانتها .

فاذا قلت ان الحجاب يمنع المرأة من السقوط يذهب قولك دليلاً على عدم ثقتك بعفتها فيكون باطلاً غير حق ويكون اكبر طعنة توجهينها الى نوعك ولا تدل بأي تصريح او تعويض على انها عامة ، تشمل كل النساء فتدعو الى حجابهن وراء ستر ، واذا قلت انها غير خاصة بنساء النبي (ص) يكون قولك محض هراء فان صراحتها التامة ونصها الذي لاغموض فيه ولفظها الخاص كل ذلك يبرهن على انها تخص نساء النبي (ص) فلا تجري فيها قاعدة ولا تتخذ مثلاً

وماهذا الحجاب الذي تتقصرين له ؟ أليس هو مما استحدثه الناس في المدن مبالغين مفرطين ؟ الا تجدين انه سد زريعة ، وليس أصلاً من أصول الدين فالمرأة تصلي في المسجد مكشوفة الوجه واليدين فلا يمنعها أحد ، وتحج مكشوفة الوجه واليدين فلا يمنعها كذلك أحد وينظر خاطبها الى وجهها ويديها ويجوز له ان يرى فيها غير هذين ايضاً فلا يستطيع ان يمنعه احد .

وقد قال النبي (ص): (اذا خطب احدكم المرأة فلا بأس ان يرى منها

---

(١) هي الآية (٥٣) من سورة الاحزاب .

ما يدعوه الى نكاحها فليفعل) وقد جاء في رواية الراوين ان عمراً خطب الى علي ابنته ام كلثوم فذكر له صغرها وبعث بها اليه ليراها فلما جاءته كشف عن ساقها فصاحت به لولا انك امير المؤمنين لصككت عينيك فماذا تستنتجين من هذا ؟ الا تجدين فيه مايكم افواه اولئك الذين مضوا في التشديد، فحرموا السفور مطلقاً وازدادوا فاوجبوا ستر المرأة لوجهها فاتبعوا بذلك ديناً غير دين الاسلام وشريعة غير شريعته(١)

قالت :

- لعلك تذكر ما روي الشيخان البخاري وسالم عن آنس انه قال: «لما تزوج النبي(ص) زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فاخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك منهم قام ،وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة . ثم انطلقوا فجئت فاخبرت النبي(ص) انهم انطلقوا فجاء حتى دخل البيت وذهبت أدخل فالقى الحجاب بيني وبينه» فنزلت الآية (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) أفلا تجد فيه ما يدعو الى الحجاب .

---

(١) نقل متى عن المسيح فقال : قد سمعتم انه قيل للقدماء لا تزن ِ واما انا فأقول لكم ان كل من نظر الى المرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه .

قال :

- اذكر اني قرأت مثل هذه الحجة في كتاب (نظرات) للشيخ مصطفى الغلاييني حاول ان يستنتج منها انها دعامة للحجاب فلننظر اليها نحن بامعان (ان النبي قد تزوج حديثاً من زينب وان القوم قد اقاموا عنده للطعام فاطالوا فاثقلوا فلم يستطع ان يطلب اليهم الانتشار لان كرم خلقه وحياءه لم يسوغا له ذلك فسكت لكن القوم ما برحوا مثقلين فنهض وخرج من البيت فانصرف بعضهم وبقي من بقي ثم انصرفوا الا آنس فقد أراد ان يدخل مرة أخرى فلم ير النبي بداً من ان يلقي بينهما حجاباً ، ففعل)

ففي هذا دليل على ان النبي يريد ان ينفرد الى أهله فلا يدعه القوم وفيه دليل على ان هؤلاء كانوا غلظة ثقلاء مسرفين في الغلظة ومفرطين في الثقالة ، فرمى النبي (ص) بينه وبينهم الحجاب ليفهموا ان حسبهم هذا الاسراف والافراط،وانه يجب ان يرحموه فيخففوا من وطأتهم عليه وجاءت الآية تقول :(ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق) فتشير الى ما بينت وتؤكده

فقالت وقد أعيتها الحجة :

- هب ان الحجاب أمر ما فرضه الدين أفليس هو عادة من

عاداتنا وتقليداً من تقاليدنا. فلمَ نترك عادتنا ولا نتمسك بتقليدنا قال:

- ذلك لأن ما انتهى اليه من فساد واختلال يدعونا الى الاصلاح والتغيير .

فانبرت تقول بحماسة :

- اذن فاصلحوا رجالكم وعلموهم وهذبوا اخلاقهم وامنعوهم عن ترديد الكلمات الجارحة السافلة كلما التقت بهم امرأة ومرت فتاة.

فقال :

- ومن يدفعهم الى هذه الكلمات؟ أليست المتحجبة التي تبدو في حجابها إلهة من آلهة الجمال ، او أداة من ادوات الفتنة والسحر - كأنها ما خلقت الا للفتنة والسحر -

قالت :

- فاصلحوا المرأة اذن الاصلاح الحق وخلوا بينها وبين التعليم الحق والتربية الصحية ، وضيفوا على ذلك تهذيب النشء واصلاحه حتى تكون الامة مهذبة راقية ثم أدعوا الى الحجاب او الى السفور فلا يضير مع الاخلاق حجاب ولا يضير سفور .

فافعمته كما أفعمها فلم يحر جواباً ...

ثم قال بعد تفكير :

- رأيت في الامس سميراً ، ورأيت معه زوجته هيفاء فاعجبت كل الاعجاب بظهرها . ووجدت في سفورها الهيئة التي يجب ان

تهيأ بها السافرة لذلك فانا سأتبع خطتها فتخرجين في الناس كما خرجت هي . فسألته ضاحكة :

— وكيف خرجت ؟ فقال :

- لقد اسبلت على منكبيها «برنسا» عقدته حول عنقها فحجبته وهبط على جسمها حتى انتهى الى ما تحت ركبتيها ووصلت طرفيه معرى فاخفى كل تقاطيعها وتكوينها . ثم لفت رأسها بوشاح وحجبت شعرها فلم تظهر منه اية خصلة ومضت لا يبين منها غير وجهها وغير يديها ... فصاحت به :

- لا لن اظهر في هذا المظهر المرعب .. فاجابها :

- نحن نحتاج كما تقولين الى تعليم الرجال والنساء والى تقويم اخلاقهم وتهذيب نفوسهم .. ولكنا لا نريد غير هذا النوع من السفور . فهيفاء متعلمة مثقفة لا يضيرها سفورها قد سفرت على هذا النحو ، وانت كذلك متعلمة مثقفة فيجب ان تسفري على هذا النحو ايضاً .

أخي :

تسألني رأيي في الحجاب والسفور

فأرى ان البحث في هذه المسألة ـ سابق لاوانه ـ كما يقولون وأرى ان لا نحصر تفكيرنا في هذين الامرين من المشكلة النسوية وانما يجب ان ندعها للزمن ، فالزمن وحده يستطيع ان يحقق احدهما ، فاما ان يبقى الحجاب ، واما ان يحل السفور .

واعتقد ان هنالك هدفاً أسمى يجب ان نتجه اليه فليس الحجاب ، ولا السفور كلما يهم المرأة ، او يهم الرجل ، وانما التعليم والتثقيف والتهذيب ، فلنعلمها ولنثقفها ولنهذبها ، فاذا بلغنا في ذلك الشأو الذي نريد استطاعا ان يتفقا على امر ويقرا به .

ولا احسبك تنكر ان اكثر الشعب يرى في السافرة مومساً او عائبة فيتحدث عنها حديث أفك وبهتان ، فيكيل لها انواع التهم الباطلة ؛ فاذا التقى بها نظر اليها بعين الشهوة والشوق ولم ينظر بعين الاجلال والاحترام . فيحتقر نفسه من حيث لا يشعر ، ويمتهن عزته من حيث لا يدرك .

ولا احسبك ايضاً تنكر ان الناس يرون في المرأة سلعة تباع وتشري واداة لهو . فاذا سفرت ازدادوا اصراراً على رأيهم، وازدادوا الحاحاً فيه . والواقع ان الحجاب والسفور امران مضران ينبغي ان تخلص من اثنيهما فنختار لانفسنا امراً وسطاً لا هو بالحجاب ولا هو بالسفور وانما هو سبيل الى انقاذنا من هذه الفوضى واستقرارنا على شيء .

ولقد ذكر من ذكر بعض فوائد الحجاب ، فقال انه يستدعي زيادة عزة المرأة ، وزيادة ميل الرجل اليها ، ويضاعف الرغبة فيها ؛ ويحول دون تنازع الرجال ببعض النساء ؛ ويمنع كثرة الزنا ويحفظ المحصنة ؛ ويضمن سعادتها وهناءها (١) فهو اذن يراها سلعة لا اكثر ولا اقل فيحكم بحجابها ليزداد الرجل ميلاً اليها ويتبع السنة القائلة ان كل ممنوع مطلوب ، وكل مبتذل منبوذ ؛ وهو يرى ان تكون اداة رغبة اي شهوة فيسيء اليها من حيث يريد الاحسان ، ويعتقد ان الحجاب يمنع الزنا ويحفظ المحصنة، لكن الايام الحاضرة تثبت في كثير من البيان ان الزنا قد تفشى تفشياً مريعاً لم يحل دونه حجاب. يخشى منه في المستقبل على البقية الباقية من الاخلاق ويخشى منه على

(١) من آراء للاستاذ الشيخ عبدالحميد الجابري

عدد المواليد اما المحصنة فاذا كانت قد نشأت في بيت يقدس الطهر والعفاف فتربت تربية لاغبار عليها ولااشتباه فيها ، فلا تخاف ان ينالها احد بسوء او يمسها بمكروه في سفورها

وذكر مضرات السفور فقال انه اختلاط جنسين ينتهي الى الرقص وشرب الخمرة وينتهي الى رفع التكليف فيدخل الغريب والقريب البيت ولا يحتاج الى وجود ربه ؛ فيختلي بالزوج او بالاخت فتعمل الطبيعة عملها فتكون المرأة امرأة والرجل رجلا فتؤول الحال الى «قصة حب» وكثيراً ما تنتهي بفاجعة . وتطلق الحرية فتطلق معها التقاليد وتحرر معها العقول وتتغير معها العادات ، فتهون الاخلاق فتنتشر الفوضى ويعم الفساد والفسق والفجور .

والحقيقة هذه هي عاقبتنا . اذا لم تكن هنالك تربية صحيحة وتثقيف صحيح وخلق قويم .

فصارى القول إذن :

ان علينا ان ندع البحث في هذه المشكلة الى حين ، وان نأخذ بتعليم الشعب ؛ وان ننشئ الجيل القادم على أحسن ما نتوخي من علو في النفس ونبل في الخصال وكرم في الطباع ، وان نفهم الجميع انهم ما خلقوا للجماع ، يقضي الرجل من المرأة وطره وتقضي المرأة

منه وطرها . وانما خلقوا لخدمة المجتمع ورفع مستوى الامة وشأن الوطن ونفهم الرجل بنوع خاص ان المرأة ليست اداة ، تهي له اسباب لذته وشهوته ، بل هي ربة منزل ترعاه وأم اطفال يكونون في المستقبل عماد القومية العربية واركانها الراسخة .

واذا كان هنالك من يريد السفور قبل ان نبلغ هذه الغاية فليتبع الطريقة التي سلكتها زوجي فان هذا خير سفور كما هو خير حجاب .

في خضم الحياة

كنت الى امدٍ قريب لاأريد للمرأة ان تدخل في ميدان العمل ، تشهد على ذلك المناقشة التي جرت بيني وبين آنسة استاذة ـ من دمشق ـ في هذا الموضوع اما الآن ، بعد مارأيت من الرجل شكواه الدائمة من مصاريف المرأة وتكاليفها ، وبعد ما رأيت دعوته الى العدول عن الزواج تخلصاً من هذه المصاريف والتكاليف ، فقد اصبحت أرى لزاماً علي ان افسح لها في مجال الاعمال لتكسب قوتها بنفسها فتتخلص به من الرجل ومن منّه وشكواه .

المؤلف

١

وتسألني رأي في عمل المرأة(١) :

هذا الوطن الذي نشكو تقهقره ونشكو خموده تنقصه المرأة الراقية التي تعادل الرجل في العلم والثقافة ، وتعادله في ممارسة حرفه ومهنه ، وفي القيام بكل وظائفه واعماله. فلنفسح لها في المجال ولندعها تشترك معنا في العمل فان لها حقوقاً كما ان لنا حقوقاً وان هذه الحقوق تحتم عليها ان تعمل لتحيا حياة تضمن لها السعادة والتقدير ، وتزيل عنها منّ الرجل وشكواه .

فنحن اذن نريد ان نخرجها من دائرة المنزل الهادئ الهانئ لنزج بها في ميدان العمل الشاق فليكن ، ولكن غيرنا على ما نظن لا يرى هذا الرأي ولا يقبل به ، وقد يسأل : اذا وظفت المرأة أو امتهنت أي مهنة: فكانت مثلاً كاتبة في ديوان ، او كانت تاجرة في

---

(١) جرت مناقشة في هذا البحث بيني وبين آنسة استاذة من دمشق على صفحات «الانشاء» وتداخلت فيها آنسة اخرى من جمعية «يقظة المرأة الشامية» فاستخلصت اكثر الآراء التي عرضتاها واثبتها هنا دليلاً على انى جاريتها في هذه الآراء .

سوق او نجارة او بناءة فجاءها الفظ الغليظ فاثقل عليها في مراجعاته وجاءها الشاي فناقشها في الغلاء الفاحش وحاسبها على الدرهم فاخذت معه في جدال قد ينتهي الى شراء وقد لا ينتهي ، او طُلب اليها ان تحت الاحجار . وتلوث يديها بمزيج الكلس والطين ، هل كان ذلك في صالحها ام هل تحسبون ان المناقشة مع المراجعين تشبه مسامرة الاحبة ، وان حمل الاحجار يشبه حمل حقائب اليد وان مزيج الكلس يشبه مزيج (البودرة) و (الكريم) . واذا سلمنا جدلا ان المرأة لا تهتم لذلك كله ، ولا تأبه له فماذا يكون حال المجتمع وقد انصرفت المرأة عن تدبير شئون منزلها وتربية اطفالها الى الكفاح في ميدان الحياة ؟ أليس دماراً محققاً وخراباً مؤكداً .

فيكون هذا سؤالاً لا تستند محتوياته الى حقيقة راهنة فقد تعب في سردها فما اثمر تعبه وقد فاته ان الفتيات في مصر ـ ومصر كما تعلم ويعلم هو قطر عربي اسلامي ـ تضيق بهن مصالح الحكومة على كثرتها وتكتظ بهن المعامل والمصانع على اختلافها فلم ذلك أليس لأن الرجال قد فسحوا للمرأة في المجال ولم يقفوا ـ كما يريدهوان يقف ـ صخرة عثرة في سبيلها وقد ساهموا في تقدمها وحضارتها ولم يجدوا فيها ـ كما وجد هو ـ سلعة تباع وتشرى واداة يلهى بها .

يقول ان المرأة قد تصادف الفظ الغليظ في ميادين العمل ، فهل كان الرجال ـ وحدهم ـ افظاظاً غلاظة ، وهل قدر علينا ان نلتقي بهم فنشقى دون ان يكون للمرأة نصيبها مع ان دمها دمنا ولحمها لحمنا ؟

ويقول ان المرأة اذا اشتغلت جر ذلك الى دمارٍ وفناء . فها هي اوروبة ، قد شاركت نساؤها رجالها في العمل ، فهل انتهت حالها الى خرابٍ ودمار ، ام انتهت الى تقدمٍ ورقي ؟

انه انما يريد ان يقول ان الفظ الغليظ لا يوجد الا في سورية ، وانه انما يريد ان يقول ان المرأة في هذه البلاد غيرها في تلك ، فلا لوم عليه ، ولا تثريب .

ثم ان المرأة ـ الى هذا كله ـ لم تلدها امها لتقبع في بيتها فتهتم بتنظيفه ، وان عملها ما حصر في اعداد الطعام ، وراء القدر وبين الاواني ، لا انها لم تخلق لهذا ولا ليقول لها الرجل : انا اتعب لتستروحي ؛ واشقى لتنعمي ، ثم يخرج من البيت فيضج امام اخوانه منها ومن مصروفها ويشكوها ، متبرماً مانّاً ، وانما خلقت لتعمل فتكسب قوتها بيمينها . فليس اشرف عندها من ان تؤمن بنفسها بقاءها .

لقد كرهت المرأة هذه الحياة ، وهذه الكلمات ، وهذه الشكوى

وهذا المنّ ، فهي تطلب عملاً شريفاً كعمل الرجل لتسعد بالحرية فتشعر بلذتها كما سعدهو ، وشعر بها .

ايها الرجل انك ترحمها كما تزعم ولا تريد ان تمتهن مهنك لان الطبيعة خصتها بالانوثة والنعومة ، وخصتك بالخشونة بالعمل الشاق المضني فلم لا تفهم من العمل الا البناءة والحدادة والنجارة فتخاف عليها منها هل كان الرجال كلهم بنائين ؟ وهل كانوا كلهم حدادين ، وكلهم نجارين ؟ أليس فيهم من يقوم باعمال اخف وطأة منها ، او ليس فيهم ايضا من بنيته اضعف من بنية المرأة ، وقوته اقل من قوتها ثم مالهذه القروية التي تجدها في سراحك ورواحك تعمل في الشارع فتبني الابنية وتعبد الطرق وتحمل في الاثنين احجاراً تعجز انت عن حملها ومالها تحرث في الحقل ، وترعى الماشية ـ الامر الذي لا تستطيعه انت ـ اتكون من طينة غير طينة المدنيات ، ام تكون من صنع إله غير الههن ؟ افلا ترى انك مستأثر جداً واناني جداً ؟ اذن فاقلع عن اثرتك وانانيتك ، ودعها امام هذه الحرف وغيرها تختار لنفسها مايوافقها ويوافق جسمها وصحتها ، وما تميل إليه ويتقبله ذوقها .

ايها السيد الرجل قد تحسب ان المرأة تبلغ اوج السعادة اذا جلست في بيتها آمنة مطمئنة بعيدة عن العمل وصعوبته ، متعرضة

لتبرم الرجل ومنّه لكن السعادة الحقة،ما كانت يوماً من الايام في السجن ، ولا في حياة قريبة من العبودية وانما كانت في الحياة الحرة والعمل الحر .

ولكنا ـ مع هذا ـ نريد من المرأة ان تنظر متجردة عن كونها امرأة تريد ان تنال حقاً هضيماً ، ومتصفة بصفة امرأة تريد ان ترى الحق والباطل ، لتختار أفضلها ـ الى حال اقرب العاملات اليها هل تجد خمس وسبعين في المئة منهن من تستطيع ان تقول ان احداً لم يمسها بسوء؛ وان تنظر اليهن في المعمل فترى هل يقتنع وجدانها انهن يعشن عيشة هانئة راضية ويحيين حياة شريفة خالية من الشبه.

لا نخال ذلك ؟ ولكنا لا نجيب عن هذا السؤال وانما ندعه للكاتبة الانكليزية مس انورد(١) تقول «اذا اشتغلت فتياتنا في البيوت خادمات طاهيات ، خير وأخف بلاءً من ان يشتغلن في معامل تصبح فيها البنت الطاهرة ملوثة بادران تذهب برونق حياتها الى الابد .

«المرأة تعتقد ان الاختلاط شيءٌ يألفه الرجل فتطمع به »

كما تدعه للادي كوك(٢) تقول :

---

(١) مس انورد في مقال نشرته «الاستون ميل» عام ١٩٠١

(٢) اللادي كوك في مقال نشرته الايكو وقد عرب هذين المقالين السيد محمد رشيد رضا منشيء مجلة «المنار المصرية»، فنقلت تعريبها بتصرف .

«يكثر اولاد الزنا بكثرة الاختلاط، وهذا هو البلاء العظيم على المرأة. فان الرجل الذي علقت منه يهجرها، فتتقلب على مضجع الفاقة والعناء فتذوق مرارة الذل والمهانة اما الفاقة فلأن الحمل وثقله والوحم ودواره يمنعان الكسب الذي تحصل به قوتها، واما العناء فلأنها تصبح شريدة حائرة. واما الذل والمهانة، فاي عار بعد هذا العار.

«يا ايها الوالدان لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بنتكما باشتغالها في المعمل، فتصير الى ماذكرت، علموها الابتعاد عن الرجل وانبئوها بالعاقبة الكامنة لها بالمرصاد.»

هذا قول كاتبتين غربيتين قد اشترك بنات جنسهما في العمل يبين للمرأة ولنا عن العاقبة السيئة التي ستقاد اليها ويبين كذلك عن النهاية المفجعة للاخلاق العربية الشرقية التي تهيأ لها، ولا نحسب ان شيئاً يستطيع ان يقنعها اقناع حجج وبراهين تأتي بها امرأة من النساء.

على انا نستطيع ان نبعد عن هذا الشر اذا علمنا الجنسين، وثقفناهما وانشأناهما على الخلق القويم ففهما معنى الحياة وادركا ان وجودهما ليس في الاغلب للجماع وانما لتكوين أمة عالية راقية وانشاء دولة قوية عظمى فاذا فعلنا ذلك فقد خلقنا في نفسيهما رادعاً يردعهما عن الفساد والفجور فلا نخشى بعدئذ من وجودهما معاً في معمل واحد جنباً الى جنب.

«سمير»

وبعد

فما هذه قصة محكمة الفقرات متماسكة الحلقات، وانما حديث جرى جرْى القصة في البحث والتحليل .

١٣ جمادى الثانية ١٣٥٨
٣٠ تموز ١٩٣٩

خالد حمدي

عنوان المراسلات : حلب : شارع البندرة

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٣	١٠	تلتمس	تلتمسي
١٦	١	عاينته	عانيته
١٦	٧	فجند	فنجد
١٧	٧	توضع	يوضع
١٧	٩	رضائه	أرضائه
١٩	١	مالم يتسنى	مالم يتسنّ
٢٩	١١	يمتنع حبيبها ان	يمتنع حبيبها عن ان
٣٣	٣	اثنيتكما	اثنتيكما
٣٥	٥	دانياً على	دانياً من
٣٧	٨	يحجبها	يحيجها
٤٣	١٣	لشيئاً	شيئاً
٤٥	٩	آرائها	آراءها
٤٩	١١	لاتكف	لا تكلف
٥٠	١٢	او اسدلت	واسدلت
٥٥	٧	كلٍ منهم	كلٌ منهم
٥٧	١٦	ليتقين	فليتقين
٦٠	٢	للحربين	للحربيين
٦١	١٥	جنيني	جنينا
٦٤	١٢	قد رها	قدرتها
٦٦	١١	العالم	العلم
٦٧	٣	لمستأثرين	للمستأثرين
٧٣	٧	فاليفت	فالفيت
٧٤	٥	تعويض	تعريض
٧٥	٩	وسالم	ومسلم
٧٧	١١	السحية	الصحيحة
٧٨	٦	معرى	بعرى
٨٩	٨	وحدانها	وجدانها

المراجع

قد رجعت في هذا البحث الى القرآن الكريم ،وبعض كتب مختلفة في الحديث النبوي ، والاغاني وشاعرات العرب،وحب ابن ابي ربيعة ، والى مراجع اخري ذكرتها على الهامش في حينها فلا أرى داعياً يدعوني الى ذكرها مرة اخرى

[redacted]
حمدى ، خالد
مع حواء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038310

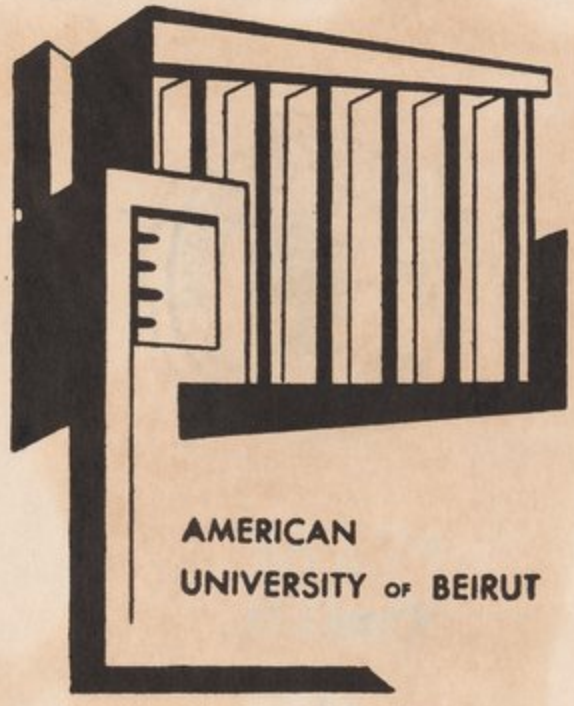

892.78
Ha5a7mA